بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدارَ وَالإيمَانَ مِنْ قَبلهم يُحِبونَ مَن هَاجَرَ إلَيْهِم وَلاَ يجدون فى صُدُورِهِم حَاجَةً مِمّاَ أُوتُوا وَيُؤثِرُون عَلَى أَنفُسِهِم وَلَو كَانَ بِهِم خَصاصَة وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأُولئك هُمُ المفلحُونَ﴾.

« صدق الله العظيم »

[الحشر : الآية ٩]

قال لى صاحبى : آلت إلىَّ هذه التجارة بعد موت أبى ، فسرت فيها على نهج الصحابة أيام رسول الله ﷺ ، والصحابة كانوا يعطون دون أن يترددوا ، فيعطيهم الله على قدر نياتهم ، ومولاى أمير المؤمنين يذكر قول الله فى آيات سورة الحشر أن أهل المدينة من أنصار الله ورسوله أصحاب المدينة ، أحبوا من هاجر إليهم من المهاجرين ، وأعطوهم فى حب الله كل ما كانوا بحاجة إليه ، وآثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، لأن الله سبحانه وقاهم شح أنفسهم ، فسألت الله أن يقينى شح نفسى ، فاستجاب لى وأصبحت أعطى المحتاج ، فوجدت نفسى أننى كلما أعطيت فى وجوه الخير ربحت من حيث لا أحتسب ،

وقد وجدت كبار التجار أمثالى يكدسون الأموال ويضنون بها ، تحل بهم الكوارث فجعلت على نفسى فريضة وهى أن أقسم ربحى فى نهاية كل عام قسمين ، قسماً أشترى به سلاحاً وخيلاً وأزواداً ، وأبعث به إلى المجاهدين فى الثغور ، وقسماً أرده فى التجارة ، فوجدت الله سبحانه يرد على ما أعطيت فى سبيله ويزيدنى من فضله ، وقبل أن أخرج إلى الحج فى عامنا الماضى أرسلت إلى الثغر بما قيمته ستون ألف دينار للمجاهدين ، وبدأت عامى بنحو عشرة آلاف دينار ، وأراها تزيد وتربح بحول الله ، وأحنى الخليفة رأسه وأطال الفكرة ثم رفعه وقال : والله إنك لأولى بإمرة المسلمين من كل مسلم ، لقد أشعرتنى بضآلة قدرى . امض أيها الشيخ فسر فى طريقك ، فهذه حقاً هى طريق الإسلام .

لهذا اخترت هذه الآية من سورة الحشر ، فهى وما سبقها وماجاء بعدها تبين لنا الخصال التى تميز المؤمنين الصادقين أو التى ينبغى أن تميزهم ، لأن أخلاقيات الإسلام تقوم أساساً على العطاء ، وصدق إيمان المرء يقاس بقدرته على العطاء ، وهنا نجد أن رسول الله ﷺ ، وهو حقا المثل الأعلى للخلق الإسلامى ، كان يعطى كل ما عنده ، وحياته كلها عطاء ، ولا يخدعك هنا ما تقوله كتب السيرة من أنه كان يختار من المغانم صفيًّا لنفسه إلى جانب خمس الله ورسوله ، فقد كان رسول الله يأخذ ذلك حقاً ، ولكن ليعطيه للناس ، ورسول الله ﷺ كان يتصرف هنا بغاية الحكمة ، فلم يكن مقتراً على نفسه متهاوناً فى مظهره فيبدو فى هيئة الفقراء الجوالين من أنبياء بنى إسرائيل الذين نقرأ عنهم فى العهد القديم ، بل كان رسول الله ﷺ رجلاً عارفاً بحق نفسه ، فيلبس أحسن ما يتيسر له من الثياب فى اعتدال بالغ ، وكانت ترد عليه ثياب الحرير وأقبية الصوف الفاخرة فلا يأخذها لنفسه قط ، لأنه كان يريد أن يربى أمته على الاعتدال فى كلّ شىء ، فلا إسراف ولا إقلال ولا إغداق على النفس ، وإنما يأخذ ما يكفيه من ثياب ، ويأكل ما يسد به جوعه دون تكلف ولا تقشف بالغ

أيضاً ، ولكنه كان حريصاً جداً على النظافة البالغة فى كل شىء ، فثوبه دائماً فى أحسن صورة من النظافة ، ورسول الله ﷺ كان يحرص على أن يغسل ثوبه ، ولكن يقع فى ظنى أنه ﷺ كان فيما يتعلق بالنظافة لا يثق إلا فى نفسه ، ومن ثم فقد تعود الناس أن يروه يغسل ثوبه بيده ، ولم يكن يكتفى بالغسيل بالماء بل كان يضع فى ماء الغسيل شيئاً أبيض يقوم مقام الصابون يسمى النورة ، فإذا فرغ من غسيل ثوبه بالنورة عاد فغسل بماء نظيف ثم نشره بيده فى الشمس ، وفى بعض الأحيان كانت تساعده فى ذلك ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وكانت متفانية فى حب أبيها لا تزال تعنى به وبأشيائه ، ومن هنا كناها الناس بأم أبيها ، وكان أيضاً يبادلها هذا الحب ، وذلك الحنان ، وكما أنها لم يكن ليطمئن لها بال إلا إذا رأته فى الصباح والمساء ، فكذلك هو ، كان لا يزال يسأل عنها ولا يستريح إلا إذا رآها واطمأن عليها .

وليس بغريب والحالة هذه أنها لم تعش بعد أبيها إلا ما بين شهرين أو ستة ، وقد حزنت حزناً بالغاً على أبيها وأنفقت كل وقتها بعد وفاته فى العناية بولديها الحسن والحسين ، ويقال إنها لم تخرج من بيتها بعد وفاة أبيها ، وقد قيل لرابعة العدوية مرة : ماذا تتمنين أن يكون لك فى الجنة ؟ قالت : أن أكون خادمة لأم أبيها سيدتى وسيدة نساء المسلمين . .

وفى الآية التى بدأت بها هذا الفصل من سورة الحشر نجد المهاجرين والأنصار يتسابقون فى العطاء ، وكان فى المهاجرين كثير من الفقراء الذين خلفوا كل مالديهم فى مكة وهاجروا إلى المدينة بالثياب التى كانت عليهم ، وهؤلاء استقبلهم أهل المدينة أحسن استقبال ، وقدموا لهم كل ما كانوا بحاجة إليه ، ولم يكونوا فى الحقيقة بحاجة إلا إلى ما يقيم الأود ، لأنهم فى الحقيقة كسبوا خيرى الدنيا والآخرة عندما هاجروا بدينهم ، وقد كان فيهم فقراء حقا ولكنهم بنص الآية الكريمة خرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وإذا

كان الله قد وصفهم فى أول الآية بأنهم فقراء فإنه يقول فى آخرها إن أولئك هم الصادقون ، وهذا القول من الله سبحانه وتعالى هو عن الدنيا والآخرة ، ولهذا فعلى الرغم من أن الكثيرين منهم تحملوا غصص الحاجة وعاشوا على القليل حتى أغناهم الله من فضله ، فإن تصرفهم لم يكن تصرف الفقراء المحتاجين قط بل كانت فيهم دائماً عزة المؤمن ، وعندما خرج لمعركة بدر من خرج منهم نظر إليهم رسول الله ﷺ ، فرق فؤاده لهم فقال : « اللهم إنهم أذلة فأعزهم ! اللهم إنهم فقراء فأغنهم ! اللهم إنهم عراة فأكسهم ، وقد استجاب الله لرسوله فعاد من تلك المعركة من لم تكتب له الشهادة منهم أعزة أغنياء من فضل الله . وقد أصاب بلال بن رباح ثوبين ودنانير وسيفاً من مغانم بدر ، فأخذ السيف وثوباً ونصف الدنانير ، وقدم الباقى لرسول الله ليعطيه لمن يشاء ممن يحتاج إليه من المسلمين .

وهذا الخلق الكريم : خلق العطاء والاكتفاء بالقليل وإيثار الإخوة المسلمين بما زاد على الحاجة ، أصبح الخلق الشائع المتبع بين رجال أمة الإسلام فى العصر النبوى ، ولهذا يقول الله سبحانه فى نفس السورة وبعد الآيات التى ذكرناها : **﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾** [الحشر ٥٩/ ١٠] .

وأحب أن أقول هنا التحديد إن المراد بالذين جاءوا من بعدهم ليسوا على وجه التحديد من هاجر إلى مكة بعد المهاجرين الأولين ، بل المقصود كل أجيال المسلمين بعد جيل الصحابة إلى أيامنا هذه ، فانظر والله إلى أجيال المسلمين يلى بعضها بعضاً ، وكل جيل يدعو لنفسه ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان ، ثم يسألون الله ألا يجعل فى قلوبهم غِلاً للذين آمنوا ، ولو أن أمم الإسلام وأجيالهم سارت على هذا النهج الكريم لما غلبهم بعد ذلك غالب . ولكن قلب الإنسان

منا يعتصر اعتصاراً وهو يرى أجيال المسلمين لا يحمل جيل منها للمؤمنين غير الغل والبغض ، فوقعت بيننا الخلافات والفتن ، ودب فى مجتمعاتنا الشر ، وبدلاً من أن نكون أمة من المؤمنين الصادقين الأعزاء بإيمانهم ومحبتهم بعضهم لبعض أصبحنا أمة الخلاف والبغضاء ، فحل بنا الفقر والتخلف والخسران .

وفى نفس هذا السياق من الآيات فى سورة الحشر نقرأ : **﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾**.

[الحشر ٥٩ :/ ٧].

وهذه الآية تخص أموال الفيوء ، والفيء : كل مال وصل إلى رسول الله ﷺ دون أن يحارب المسلمون فى سبيله ، لأن الأموال التى تتأتى للمسلمين بالحرب والخيل والركاب فهى المغانم ، والمثال الذى يذكره الفقهاء لأموال الفيء هو مثال فدك ، وفدك مدينة صغيرة فى شمالى جزيرة العرب على نحو خمسين كيلو مترا إلى الشمال الشرقى من خيبر، وكان أهلها يهوداً ــ مثلهم مثل أهل خيبر ــ فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر وأجرى على مغانمها حكم المغانم ثم ترك أهلها على أرضها يزرعونها ويؤدون للمسلمين نصف غلة أراضيها ونخلها ، خاف أهل فدك على أنفسهم فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ يعرضون عليه الدخول فى طاعة الله ورسوله ويجرى عليهم حكم الله كما حدث فى ثمرات خيبر ، فقبل رسول الله ذلك واعتبر المال المتأتى من فدك دون قتال من جانب المسلمين فيئاً من الله على رسوله خاصة يتصرف فيه بما فيه صالح المسلمين ، وأنت ترى مصارف الفيء كما حددتها الآية ، فهى لله ورسوله أى لبيت مال المسلمين والرسول ـ بصفته نبى الأمة ورأس أمة الإيمان ـ يتصرف فيها بحسب حاجات الأمة ، ثم تنص الآية على طوائف من

المسلمين لهم حق معلوم فى تلك الفيوء . . وهى طوائف ذوى القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، وأهم شيء تنص عليه الآية العظيمة هو أن هذا المال ينبغى ألا يصيب منه الأغنياء غير المحتاجين ، لأن هؤلاء إذا استولوا على مال المسلمين أو جزء منه قصروه على أنفسهم ، وأصبح دولة ــ أى قوة ــ فى أيديهم يتبادلونها فيما بينهم ، ويذلون بها الناس ، ورسول الله ﷺ هنا رمز لرؤساء الدول الإسلامية التى قامت بعد العصر النبوى ، والله سبحانه يجعل رسوله مشرعاً له الحق فى أن يقرر ما يرى فى شئوننا ، ونحن ملزمون بأن نأخذ ما أمرنا به الرسول وترك ما ينهانا عنه .

وأنت إذا تدبرت هذه الآية ملياً وجدت أموال الفيوء انتهت بوفاة رسول الله ﷺ وحلت محلها بعد ذلك أموال الضرائب والجمارك وكل إيرادات تصل إلى الدولة ، فهذه أموال تتجمع للدولة دون حروب ولا خيل ولا ركاب وواجب الدول هو التصرف فيها على أنها أموال فىء ، وتنفق فى صالح الجماعة أى الأمة ، وخاصة أهل الحاجة ، وفى عصور الإسلام الماضية أصبحت الأمة كلها أصحاب حاجات ، والحاجات هنا هى المرافق من طرق ومنشآت ومساجد ومدارس ومستشفيات وكل ما ينفع الأمة ، أما أن يحتفظ الخليفة أو السلطان بأموال الضرائب ــ أيا كان نوعها أو اسمها أو شكلها ــ ليتصرف فيها كما يشاء . . فمخالفة لشرع الإسلام . وقد أدت هذه المخالفة إلى فساد الشئون المالية فى دول الإسلام كلها ، فقد أصبحت بالفعل دول بين أيدى الأغنياء وهم رؤساء الدول وحواشيهم . وأصبح هؤلاء الأغنياء الذين يستولون على مال الله ويديرونه بينهم تاركين المحتاجين والمرافق لا تنفق الدولة عليها شيئاً ، ويتبين من هذا مدى الخطأ الذى وقعنا فيه نتيجة لسوء التصرف فى موارد الدولة ، فقد قامت فينا فى الماضى حكومات فرضت علينا بالقوة ، وعلى رأس كل حكومة قام خليفة أو سلطان بعد وزير ورجال إدارة هم إلى الشياطين أقرب ، وهذه القلة القليلة من

السادة تعتمد فى فرض سلطانها على جند تؤلبهم بالمال أو تشتريهم ، وكان المفروض أن الهيئة الحاكمة لابد أن يختارها الناس كما اختاروا أبا بكر ، ولم يكن يحكم وحده بل كانت حوله جماعة الصحابة التى تربت على يد الرسول ، فهى تعرف الحق والعدل لأنها عاشت ونمت فى ظل رمز الحق والعدل وهو رسول الله ﷺ ، ولهذا فقد استطاع أبو بكر أن يواجه مشكلة الردة ويقضى عليها وعلى المتنبئين ، ويعيد وحدة الأمة ، لأنه اعتمد فى تنفيذ قراراته على الأمة التى اختارته . ومع أن الذين نسميهم مرتدين لم يكن فيهم إلا القليلون جداً ممن ارتدوا عن الإسلام فعلاً ، فإن أبا بكر قال فى مناقشاته مع الصحابة إنه يحاربهم لأنهم أرادوا أن يتوقفوا عن أداء الصدقات ، وقالوا : نحن لا نؤدى لك ياأبا بكر الصدقات لأن الأمر بأخذها صدر من الله لرسوله فهو سبحانه يقول ٠ ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ** ﴾.

[التوبه ٩/ ١٠٣] .

وقالوا إن الأمر هنا صادر من الله سبحانه لرسوله الكريم ، وليس لأبى بكر الحق فى أن يضع نفسه مكان رسول الله ﷺ . ولهذا فنحن لا نؤدى هذه الصدقات إلى أبى بكر ، وعمر بن الخطاب فى حوار الصحابة قال إن مبالغ الصدقات ضئيلة وهى لا تستحق أن نحارب الناس عليها ، ولكن أبا بكر قال ما معناه إننى خليفة رسول الله ﷺ ورسول الله لم يكن يأخذ هذه المبالغ لنفسه بل للأمة ، وللصدقات مصارف معروفة بينها القرآن الكريم : ومصارف الصدقات كلها خير للأمة ، وأنا لا أعطل حكماً من أحكام القرآن إكراماً لأى مخلوق ، ولهذا فأنا أعتبرهم مرتدين وأحاربهم على أنهم مرتدون ، وحاربهم فعلاً ونجح فى إعادة وحدة الأمة .

وأنت ترى أن هذه القضية كلها ــ قضية الردة ــ قامت على أساس من

الصدق والإخلاص للأمة ، فأبو بكر ـ الذى اختارته الأمة ـ حارب فى سبيل الأمة وصالحها ، فهو نفسه لم يصب درهماً من أموال الصدقات ، ولا أخذ مجاهد مسلم درهماً فى مقابل حربه للمرتدين ، لأننا هنا أمام أمة صادقة مخلصة ، والصدق والإخلاص على رأس أخلاقيات الإسلام .

وأنا عندما أفكر فى أخلاقيات الإسلام أو أكتب فيها أتحاشى أن أنطلق مع الكلام النظرى أو أسترسل مع تأملات تجعلنى أقرب إلى خطباء الجُمُعَاتِ فى المساجد ، فهؤلاء يقدمون لنا فى خطبهم قواعد ونصائح جيدة ، ولكننا فى الحقيقة لا ندرى ماذا نفعل بها ، وعلى سبيل المثال أذكر أننى سمعت فى الإسكندرية من أسابيع خطبة الجمعة ، والخطيب تحدث عن حقوق الجار ، ولكن كلامه كله نصائح ومواعظ لا يتحصل منها شىء ، لأن الجار والجوار قد تغير فى أيامنا ، ولم نعد نستطيع تطبيق أى قاعدة من قواعد حسن الجوار التى يقدمها لنا الخطيب ، لأن العصر الذى يتحدث عنه قد انتهى بكل تفاصيله ، وانتهت البيوت الكبيرة التى كان الناس يسكنونها ويتعايشون فيها على أساس أن جارك أخوك ، وأنك ملزم برعايته وحفظ حقوقه والنظر إلى أهله على أنهم أهلك . وقد عرفت الحياة فى متلك البيوت الكبيرة القديمة وأنا صبى ، وكانت أبواب الناس مفتحة والنسوة يعشن فى جماعة واحدة ، وما طبخت أسرتى شيئاً إلا أهدت منه طبقاً لجيرانها ، ولكنى أقول ذلك لأن تلك الحياة كانت حافلة بالشقاء ، وكانت بين الجيران من المشاجرات ما تبلغ حدته مبالغ الحروب ، ولا أنسى قط تلك المشاجرات بين النسوان وما كان بعضهن يقلن لبعض من بذىء القول بأعلى صوت ، وكان الرجال يدخلون هذه المشاجرات ويصبح البيت كله « حريقة » وما يسمونه أيام زمان الحلوة كانت أيام قطران تعيسة ، لأن الصداقة والمحبة والوفاء وما إليها من فضائل الإسلام كانت تمارس نظرياً لا عملياً ، فالرجل صادق معك حتى تبدوله مصلحة صغيرة تتعارض مع مصلحتك ،

وهنا ينقلب عدوًّا لك . لأن أحداً لم يهتم بأن يبين للناس الخط الفاصل بين الخير والشر ، بل لم يهتم أحد بأن يبين للناس فضائل الخير . والشيوخ الذين كانوا المتعلمين فى ذلك المجتمع القديم لم يقوموا قط بواجبهم الأساسى وهو توجيه الناس إلى الطريق المستقيم بحكم معرفتهم بالكتاب والسنة .

ولكنى وأنا صغير جداً تبينت أن أولئك الشيوخ لم يكونوا أحسن حالاً من عامة الناس ، بل كانوا أكثر تزاحماً على فتات الدنيا ، لأن معظمهم كان ينشأ من مناشىء متواضعة جداً ، وكانت معظم أيامهم شظفاً ، فتربت فيهم خصال الحرص والطمع ، وقامت بينهم العداوات الحامية على الملاليم ، وأذكر أنه كان يقرأ القرآن عندنا فى البيت شيخ يسمى الشيخ توفيق ، فعهدت إليه جدتى أن يشرف على تحفيظى القرآن ، فكان يدخل وفى يده جزء من أجزاء الكتاب الكريم الذى يبدأ بسورة النبأ وأولها ﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ . عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة النَّبَأ : ١ ــ ٢] وهو جزء صعب الحفظ على الصغار ، ففيه الكثير من أوائل السور المكيات من أمثال النازعات والتكوير والانفطار وما إليها ، وكان هذا الرجل يقول لى أول ما يدخل : اذهب إلى جدتك وقل لها إن الشيخ توفيق قد وصل وهو يطلب الإفطار ، وكانت جدتى تسمعه وتقول : حاضر ياشيخ توفيق ، ابدأ فى تحفيظ الولد وطعامك سيأتيك على ما تشتهى . وأفتح الجزء وأمضى أقرأ فى سورة النبأ وأخونا ليس معى لأن عقله وقلبه معلق بالطعام ، ويأتى الطعام وصاحبنا ينظر فيه ويستزيد من كل شىء : من السمن والخبز والمشهيات ، وينقض الرجل على الطعام بصورة بشعة وأنا أقرأ ، فإذا فرغ من الطعام رفع قلة الماء وصب منها فى جوفه شلالاً ، ثم طلب الشاى وقال لى : اذهب وائتنى بسيجارة من علبة أبيك ، فأقول له : إن تلك العلبة فى حجرته وهى مقفلة وهو لا يحب أن يدخلها أحد فى غيابه فيقول : ليس من الضرورى أن تقول له : تسحب إلى داخل الحجرة وائتنى بالسيجارة ولا من درى ولا من

سمع ! وأقول له : ياشيخ توفيق إن هذه تعتبر سرقة وأنا لا أستطيع أن أسرق أحداً فضلاً عن أبى ، فكان يشرب الشاى رشفا بصوت مرتفع وهو غاضب فإذا فرغ منه نهض وقال : غداً أسمع لك الصفحة الأولى من سورة « قد سمع » وليكن فى علمك أننى آكل فى الإفطار رغيفين ثم أشرب الشاى ولابد أن أدخن بعد ذلك سيجارة لكى أستطيع بعد ذلك أن أعمل ولا يهمنى كيف تأتينى بالسيجارة ، المهم أنك تعرف ذلك كله من الآن ، ثم انطلق خارجاً .

وقصصت ذلك كله على جدتى ، فاستمعت إلى صامتة ولم تقل شيئاً ، وفى اليوم التالى عندما حضر الشيخ توفيق دخلت إليه جدتى ووبخته توبيخاً شديداً وقالت له : أتينا بك لتحفظ الولد القرآن وتصلح أخلاقه لا لتفسدها ، ونحن لهذا لا نريد منك شيئاً ، ستأتيك الخادمة بإفطارك كما تحب ، فكل وانصرف ولا تعد إلينا مرة ثانية .

وإنما ضربت لك هذا المثل لترى كيف أن هذه الأمة لم تجد من يربيها ويرشدها إلى الطريق القويم ، فهذا الشيخ الذى أتوا به ليعلمنى ويحفظنى أعظم ما من الله بـه على البشر ، وهو القرآن ، هذا كان تصرفه ، لأن الأخلاق عنده كانت نظرية تختلف عن الواقع ولا تطابقه ، فهو يحفظ القرآن فعلاً ، ولكنه ماكان ليعمل بشىء مما فيه ، والسبب فى ذلك هو أن الفقر الشديد الذى كان هذا الرجل يعيش فيه كان يحول بينه وبين إدراك القيم الإسلامية الرفيعة ، فهو يصارع فعلاً فى سبيل لقمة العيش صراع المستميت ، ولكن صراعه هزيل ضئيل ، ولهذا فإن هذا الرجل لم يفلح فى أن يعلمنى ولو جانباً يسيراً من فضائل الإسلام ، لأنه هو نفسه كان بعيداً عن ذلك كل البعد .

إن مكارم الأخلاق الإسلامية التى بعث رسول الله ﷺ ليتممها فضائل جماعية ، وكل الفضائل واردة فى القرآن الكريم ، ففيه الصدق والإخلاص

والأمانة والمحبة والشهامة والكرم والوفاء ، وهى فى القرآن جماعية لا فردية ، أى أن الصدق فى الإسلام عام ينبغى أن يسير عليه كل الناس حتى تتجلى فوائده وخيراته ، وأنت لا تستطيع أن تكون صادقاً وكل من حولك كاذبون ، وهذه الجماعية فى الخلق والتصرف هى التى قضى رسول الله ﷺ حياته فى نقل المجتمع العربى إليها ، وأنت ترى فى آيات سورة الحشر التى أتيتك بها أنها تثنى على محبة الأنصار للمهاجرين ووفاء المهاجرين لقضية الإسلام ، ورسول الله المعلم اجتهد فى أن ينشىء أمة إسلامية مترابطة بالفضائل متعاونة بالعطاء ، فالمسلم الحق يعطى قبل أن يأخذ ، ويفكر فى أمة الإسلام قبل أن يفكر فى نفسه ، وهو إذا فعل ذلك نجح ونجحت أمة الإسلام ، أما حب النفس والأنانية وتكالب كل إنسان على مافيه خيره وخير أسرته الصغيرة دون نظر إلى الآخرين فليس بالخلق الإسلامى ، ثم إن أخلاقيات الإسلام كلها عملية ، فالإسلام لا يعرف الرهبانية ، ولا يحب الإنسان الكسول الذى يقضى عمره فيما يسميه العبادة ، منصرفاً عن السعى ومعتمداً فى حياته على جهد الآخرين ، إنما نحن مطالبون بأن نعبد الله معا ونعمل معا ونجاهد معا .

ويستوقف نظرى أن الأمم القوية التى سادتنا فعلت ذلك من دوننا فأفلحت وتعثرنا ، فكأن الإسلام نزل عليهم لا علينا ، وكأنهم هم المؤمنون ونحن الكفار ، وهذا الكلام قال شيئاً فى معناه الشيخ محمد عبده وهو واحد من القلائل الذين فهموا الإسلام وعاشوا واجتهدوا فى دفع المسلمين فى طريق العلم والفهم والعمل الجماعى ، وقد شقى بهذا السبب وحاربوه وأتعسوه ثم عادوا بعد ذلك يرفعون قدره ويفتخرون به ، وهذا مثال من كثير نفهم منه أسباب هذا الفشل وذلك الفقر الذى تعانيه أمة الإسلام جميعاً .

* * *